

أحاديث رمضان ١٤٢٣ هـ - أحاديث قدسية - الدرس (٢٨-٣١) : يخرج في آخر الزمان رجل.....

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٢-١٢-٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

إخبار النبي عما سيكون في آخر الزمان من إعلام الله له :

أيها الأخوة، انطلاقاً من الآية الكريمة:

(قُلْ لَّا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة النمل : ٦٥]

والنبي عليه الصلاة والسلام على عظم قدره، وعلى أنه سيد الخلق وحيب الحق، لا يعلم الغيب، فإذا أخبرك عما سيكون في آخر الزمان فهذا من إعلام الله له، لا يعلمه بذاته. الحقيقة أينما جلست تجد الناس يعجبون من نماذج بشرية بعيدة أن تكون من بني البشر، من هذا المنطلق أخرج الإمام الترمذي في باب الفتن:

((سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رَجَالٌ يَخْتَلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّانِ مِنَ اللَّيْنِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الدَّنَابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبِي يَغْتَرُونَ أَمْ عَلِيٌّ يَجْتَرُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ لَأُبْعَثَنَّ عَلَى أَوْلِيكَ مِنْهُمْ فُتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

يختلون أي يأخذون، يأخذون الدنيا باسم الدين، يتاجرون به، ويحققون مصالحهم بالدين، لأن الدين يغدو الورقة الراحبة بأخر الزمان بأيدي الناس، لأن كل النظم الوضعية سقطت، ولم تحقق للإنسان أهدافه إطلاقاً، لا الأنظمة الشرقية التي تقدر المجموع، ولا الأنظمة الغربية التي تقدر الفرد، ولا الأنظمة التي انقطعت عن وحي السماء إطلاقاً، ولا الأنظمة التي شوهدت وحي السماء، كل نظام وضعي أصبح في الوحل لأنه لم يحقق للإنسان سعادة لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولم يبق إلا الدين في الساحة، وهذه الهجمة الشرسة التي ترونها وتسمعون عنها بالقارات الخمس على هذا الدين العظيم، لأنه أمل البشر جميعاً، هو الأمل الذي يقف في وجه أهل الكفر والطغيان، فذلك يمكن أن يأتي المنافقون ويستغلوا الدين ويلعبوا بأوراقه، وينهبون الدنيا باسم الدين.

((... يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رَجَالٌ يَخْتَلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّانِ مِنَ اللَّيْنِ...))

[الترمذي عن أبي هريرة]

نعومة ما بعدها نعومة، كلام أحلى من العسل، فإذا رأيت أفعالهم فهي أشد من الصبر، هذا الموقف المتناقض!

الإنسان في آخر الزمان يرى الدنيا ولا يرى الآخرة ويرى الحاجات ولا يرى المثل :

ألم يقل عليه الصلاة والسلام ويحدثنا عن أشرط الساعة، يحدثنا عن الأعرور الدجال، وبصرف النظر عن أن لهذا الشرط شخص معين، وقد يكون الأعرور الدجال شخص معين يأتي في آخر الزمان، لكن هذا لا يمنع أن نفهم أن الأعرور الدجال نموذج متكرر في آخر الزمان! هذا النموذج الذي يرى الدنيا ولا يرى الآخرة، يرى المادة ولا يرى الروح، يرى المال ولا يرى القيم، يرى الحاجات ولا يرى المثل، إنسان مادي شبيه بالبهيمة:

(**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**)

[سورة الفرقان : ٤٤]

شبيه بالحمير المستنفرة التي:

(**فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**)

[سورة المدثر: ٥١]

شبيه بالذي حُمِلَ التوراة ثم لم يحملها:

(**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**)

[سورة الجمعة: ٥]

شبيه بالكلب إن تحمل عليه يلهث، وإن تتركه يلهث، هذا النموذج الذي ترونه كل يوم:

((...يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّانِ مِنَ اللَّيْنِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الدَّيْبِ ...))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لا ترتاح لهم، بيتسمون في وجهك، يصافحونك بحرارة، ويعبرون عن أشواقهم إليك، لكنك لا ترتاح لهم، تخاف منهم، مع دمايتهم ولطفهم ونعومتهم، ترون أنتم كيف أن الطغاة في العالم يبيدون شعوباً بأكملها، فإذا رأوا طفلاً في احتفال حملوه وقبلوه.

أحد زعماء العالم الغربي أباد شعوباً بأكملها، صوّر وهو يمشي في الطريق فإذا بكلب صغير يحمله ويقبله، ما أرق قلبه! يُقْتَلُ كلباً ويذبح أمة، هذا النموذج المتناقض، شخصية عجيبة! تلبس للناس ما يرضيهم، يقام في رمضان مآذب إفطار في عاد الثانية تكريماً للمسلمين، والمسلمون يذبحون في كل مكان بتخطيط من عاد الثانية، ومن وحيد القرن.

الإنسان مخير ولكن حينما يأتي العقاب يصبح في قبضة الله :

أيها الأخوة:

((...يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّانِ مِنَ اللَّيْنِ أَلْسِنَتَهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الدَّيَّانِ يَقُولُ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبِي يَعْتَرُونَ ...))

[الترمذي عن أبي هريرة]

هل غرهم حلمي وتأخير عقوبتي؟

أيها الأخوة الكرام، لأنك مخير يمكن أن تفعل السيئات إلى أمد طويل، ولا ترى شيئاً، النبض ثمانون، الضغط ثمانية اثنان عشر، التحليلات كلها طبيعية، قوي، ذكي، الله عز وجل من سياسته أنه يرخي الحبل، لو شدة لما كنت مخيراً، لأنك مخير لا بد من أن تأخذ أبعادك كلها، فقد تطيعه أمداً طويلاً وأنت لا ترى شيئاً، ضعيف مستضعف، وقد تعصيه أمداً طويلاً ولا ترى شيئاً، وأنت قوي معزز مكرم، ولكن حينما يأتي العقاب ودفع الثمن في ثانية واحدة تصبح في قبضة الله:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية: ٢٥-٢٦]

اعملوا ما شئتم:

((... وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الدَّيَّانِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبِي يَعْتَرُونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرُونَ فَبِي حَلَفْتُ ...))

[الترمذي عن أبي هريرة]

حلف بذاته:

((...لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أَوْلِيكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

عقابهم في الدنيا قبل الآخرة:

((...لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أَوْلِيكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

إِنَّ اللَّهَ ذُو انتقام شديد :

وهذا الذي تشاهدونه في العالم الغربي قلق ما بعده قلق، قناص واحد استطاع أن يعطل المدارس في أكبر ولاية في أمريكا عشرين يوماً، ولأول مرة تستعين قوى الأمن بالبنتاغون لحل هذه المشكلة:

((...فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أَوْلِيكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

إن الله ذو انتقام شديد:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: ١٢]

هذا الذي يستخف بوعيد الله، لا يعبا بأن الله يعلم، وبأن الله سيحاسب ويعاقب لا يعبا، تأتيه المصيبة، سمعت عن بلد إسلامي تفلت تفلتاً لا يوصف من منهج الله، غرق في المعاصي والآثام، فساق الله له زلزالاً

حدثني أحد الأخوة هناك أنه في صلاة الظهر لا تجد في حرم المساجد مكاناً لمصلِّ، صلى الناس في صحون المساجد! من إقبال الناس على الدين عقب الزلزال، دمر حوالي عشرة آلاف منزل بثوان معدودة! فالله عز وجل في أية لحظة يكون الكافر في قبضة الله هو وتبجحاته، واستعلاءاته، وغطرسته، وتحديه، ورعونته.

من علامات المؤمن أنك ترتاح له بينما المنافق لا تأمن بوائقه :

أعيد الحديث مرة ثانية:

((سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رَجَالٌ يَخْتَلُونَ الدُّنْيَا بِالَّذِينَ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّانِ مِنَ اللَّيْنِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذَّنَابِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبِي يَعْتَرُونَ أَمْ عَلِيٌّ يَجْتَرُونَ فَبِي حَلَفْتُ لَأُبْعَثَنَّ عَلَى أَوْلِيكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا))

[الترمذي عن أبي هريرة]

حديث آخر:

((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَقَدْ خَلَقْتُ خَلْقًا أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ فَبِي حَلَفْتُ لَأُتِيحَنَّهُمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا فَبِي يَعْتَرُونَ أَمْ عَلِيٌّ يَجْتَرُونَ))

[الترمذي عن ابن عمر]

مرة دخلت إلى احتفال، وأنا مضطر لمغادرته بعد ربع ساعة، فاستأذنت من عريف الحفل فقال: الاحتفال يبدأ بقدمك وينتهي بخروجك، أنت الأصل، والله كلام أحلى من العسل، هناك شخص عنده قدرة بأن يسلب قلبك بلطفه لكنك لا ترتاح له، تخاف منه، وتجد إنساناً آخر مجاملاته ضعيفة جداً، لكنك مطمئن له، فالمؤمن قد لا يحسن هذا النفاق العالي جداً لكنك ترتاح له، قيده الشرع لن يغدر بك، ولن يطعنك، ولن يمكر بك، فمن علامات المؤمن أنك ترتاح له، والنبى عليه الصلاة والسلام وصف المنافق بأن جاره لا يأمن بوائقه.

أخ من أخواننا له بيت أرضي ووجيبة داخلية، أراد أن يزوج ابنه أنشأ حماماً صغيراً في وجيبته الداخلية والبيت أرضي، ولا يمكن أن يؤدي أحداً، لا يحجب شمساً ولا يعيق رؤية، ومع ذلك جاء من يهد له من الجيران! ماذا فعل؟ لو حجب الشمس أو الرؤية كلام منطقي، لكن لم يفعل شيئاً، في بيته ولتزويج ابنه! فلذلك الناس متقاطعون، أن تعيش بين أناس منافقين دائماً أنت قلق، لأن كل واحد لغم لا تعلم متى ينفجر، أما المؤمن الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن.

سيدنا عمر قال لرجل منافق: والله إنني لا أحبك! فأجابه: أو يمنعك بغضك لي أن تعطيني حقي؟ قال: لا والله، لا أستطيع قال: إنما يأسف على الحب النساء، منافق !

المؤمن مقيد بالشرع :

أيها الأخوة، سيدنا عمر كان في أطراف المدينة ومعه عبد الرحمن بن عوف رأوا قافلة فقال لعبد الرحمن بن عوف: تعال نحرس هذه القافلة لوجه الله، يبدو أن طفلاً بكى فقام عمر إلى أمه وقال: أرضعنيه، أرضعته ثم بكى ثلاث مرات، إذاً في الأمر ربيبة! معنى ذلك أنها لا ترضعه، فغضب و قال: لم لا ترضعيه؟ قالت له: وما شأنك بنا؟ إنني أطممه، قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، التعويض العائلي لا يستحق عن الطفل إلا بعد الفطام، فضرب عمر جبهته وقال: ويحك يا بن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين، وصلى صلاة الفجر فلم يستطع الصحابة أن يتفهموا قراءته من شدة بكائه كان يقول: ربي هل قبلت توبتي فأهني نفسي أم رددتها فأعزيتها؟ المؤمن مقيد بألف قيد، يخاف أن يأكل حق إنسان، يخاف أن يظلم إنساناً، يخاف ألا يعطي إنساناً حقه، أما الكافر فذنبه كالذبابة، أما المؤمن فذنبه كأنه جبل يخاف أن يقع عليه، إن الله تعالى قال:

((...خَلَقْنَا أَلْسِنَتَهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ فَبِي حَلْفَتٍ لَأَتِيحَنَّهُمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا فَبِي يَعْتَرُونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرُونَ))

[الترمذي عن ابن عمر]

من كان في طاعة الله فهو في مظلة وحفظه ورعايته :

أخطر شيء أن ترى أن الله يمدك بما تشتهي وتريد وأنت تعصيه، عندئذ فاحذره.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: ١٢]

ويؤتى الحذر من مأمنه، ويمكن أن تنقلب الدنيا رأساً على عقب بثانية واحدة، اللهم إنا نعوذ بك من فجأة نقمته، وتحول عافيتك، وجميع سخطك، بثانية واحدة شاب مستهتر بكل قيم الدين أتيح له أن يكون في الخليج، اشترى مركبة وفي أول رحلة من دبي إلى أبو ظبي وقع بحادث قطع عاموده الفقري، فهو الآن مشلول في السادسة والعشرين من عمره !

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: ١٢]

لكنك إذا كنت في طاعة الله أنت في مظلة وحفظ ورعاية الله.

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: ٤٨]

هذه الآية لرسول الله، ولكل مؤمن منها نصيب، يشعر المؤمن أنه بعين الله، وبحفظه، ورعايته، وتوفيقه، وأن الله لن يضيعه، ولن يخذله، ولن يسلمه، ولن ينساه.

الحديث التالي يطمئن المؤمن و يعيد له التوازن :

أيها الأخوة، نحن في آخر الزمان، وهذه الأحاديث تعيد لنا التوازن، في آخر الزمان إن رأيت إنساناً مستقيماً محسناً يخلت توازنك! أنت ألفت أن الناس أعداء، ويريدون أن يبتزوا مالك، ويصعدوا على أكتافك، ويأخذوا ما عندك، ويضعوك في التعتيم وهم في الإضاءة، فالمؤمن يطمئنه هذا الحديث، أن هذا الذي يجده في آخر الزمان شيء طبيعي جداً، هكذا الناس في آخر الزمان، لذلك:

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: خُطِبْنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا فَقَالَ.... عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفِرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الْبَائِثِينَ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزِمِ الْجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ))

[الترمذي عن ابن عمر]

لذلك:

(فَأُوُوا إِلَى الْكَهْفِ)

[سورة الكهف: ١٦]

كهفكم بيوتكم ومسجدكم.

(فَأُوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ)

[سورة الكهف: ١٦]

لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي، إذا كنت محاطاً بمؤمنين ليسوا معصومين، هؤلاء ليسوا أنبياء بل مؤمنين، أخطأ معي تأخر ربع ساعة، ليسوا معصومين لا يطعنونك في الظهر، لكنهم لا يغدرون بك، ولا يبتزون أموالك، ولا يسلمونك لعدوك، ولا يوشون بك إلى من لا تحب، هناك منطقة أمان كبيرة جداً في علاقتك بالمؤمنين، ومن أجمل ما في الدنيا أخ في الله، تحبه ويحبك، تنصحه وينصحك، تأخذ بيده إلى الله ويأخذ بيدك، تتفقده ويتفقده، تقف معه ويقف معك، ولا يتأثر بعلوك في الأرض أو بوقوعك في حفرة، هو معك دائماً، ليس معك مادمت قوياً، رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عندهم ذهب، رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال، رأيت الناس انفضوا إلى من عنده فضة، يقبلون على الغني والقوي ليأخذون منه، فإذا زويت الدنيا عنه تفرقوا عنه.

والحمد لله رب العالمين